أم مارية الأثرية
د. آلاء ممدوح محمود
ليدبروا آياته

وعظ وتذكير بالإنفاق والجهاد

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)}

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

ربط هذه الآية بما قبلها

بعدما ذكر الله النماذج المؤمنة المجاهدة، عاد التذكير بوعظ المؤمنين بالإنفاق والجهاد وبذل المال والنفس

عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون النبي: أين يضعون أموالهم؟، فنزلت هذه الآية.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} أي: يسألونك عن النفقة، وهذا السؤال عام فيشمل السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عن الإثنين فقال: {قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ} أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، {فَلِلْوَالِدَيْنِ} لوجوب برهما، وحرمة عقوقهما وأعظم البر بهما النفقة عليهما، وأعظم العقوق بهما ترك الإنفاق عليهما، ثم النفقة على {وَالْأَقْرَبِينَ} فالإنفاق عليهم صدقة وصلة رحم، ثم النفقة على { وَالْيَتَامَى} وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد، رحمة منه بهم ولطفا، {وَالْمَسَاكِينِ} وهم أهل الحاجات، الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم، لدفع حاجاتهم وإغنائهم، وإذا ذكر المساكين ولم يذكر الفقراء دل ذلك على شمولهم معهم.

{وَابْنَ السَّبِيلِ} أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة، التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف، لشدة الحاجة، عمم تعالى فقال: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ} من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، {فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

هداية .... وتدبر

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ	حرص الصحابة ـرضي الله عنهم- على تعلم دينهم وما يحتاجون إليه، وهذا في كتاب الله في نحو اثني عشر موضعًا، "يسألونك". فالواجب على كل من يجهل أن يسأل ليتعلم، فيتعبد لله بما شرع، لقوله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، بل ان حسن السؤال نصف العلم، ولايمنع الإنسان من السؤال الحياء ولا الكبر، يقول الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى " :العلم خزائن مباركة مفاتيحها الأسئلة " ويضيع العلم بين شيئين الحياء والكبر. كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يوصي الناس بتعلم العلم فيقول: عليك بالعلم قبل أن يقبض وقبضه أن يذهب أهله أو قال أصحابه. ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: " تعلموا، تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا.
مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ	النفقة لابد أن تكون النفقة من كسب صحيح، حلال، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، ولا تكون من أموال محرمة ومكاسب محرمة.
فَلِلْوَالِدَيْنِ	بدأ بهما؛ لأنهما أحق، وإذا كان الوالدان محتاجان فيجب على الولد أن يُنفق عليهما ولا يحل أن يدفع شيئًا من الزكاة لأبويه إلا في قضاء الدين، وكما قال النبي ﷺ عن الزكاة هي أوساخ الناس، ولا يصح أن يصرفها لأبويه.

	أما إن كان الوالدان غير محتاجين، فيدفع لهما من المال على وجه الإحسان والتبرر، فقد تكون الأم غير محتاجة، ولكنها بحاجة إلى أن ترى أصالة ابنها الذي ربته منذ نعومة أظفاره، حملته في بطنها ثم ربته ورعته حتى كبر وتعلم وصار يعمل، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!.
وَالْيَتَامَى	وهو من فقد أباه دون سن البلوغ، فمثل هذا ضعيف كسير الجناح ينظر إلى أقرانه وهم يلوذون بآبائهم ويحتمون بهم، ويعيشون في كنفهم ورعايتهم، وهو ليس له أب فقد يضيع في المجتمع، أو ينحرف، لذا الله سبحانه وتعالى رغب في الإحسان إليهم.
	قدمهم على الفقراء والمساكين لأنهم أحوج من الفقراء والمساكين وابن السبيل فهم رجال يحمون أنفسهم، لكن اليتيم لا يستطيع حماية نفسه ولا يُحسن العمل ولا يتحمل ما يتحمله الرجال.
وَابْنَ السَّبِيلِ	وهو المسافر الذي انقطع في سفره، سواء ذهبت نفقته، أوسُرقت، أوفقدها وضاعت منه، فالإسلام يحميه ويحفظ كرامته فلايهان، ويُذل، بل يُعطى من الزكاة، ومن بيت المال عطية تصلح لمثله إلى أن يرجع إلى بلده، فإذا كان غني من عادته أن يسكن في فنادق درجات عالية ويأكل من أفخم الأطعمة فيُعطى ما يصلح لمثله من غير أي منة.
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ	ما هذه تفيد العموم، وخير هنا نكرة في سياق الشرط تفيد العموم، مهما كان صغيرًا بحجمه، والله يقول: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه} [سورة الزلزلة:7]، مثاقيل الذر ليس لها وزن في المقاييس والموازين الدنيوية، ومعاوية بن قُرة من التابعين أُهدي له طعام بعد العشاء فأكل منه ثم ترك بعضه فلما أصبح وجده قد اسود من الذر فوزنه بالذر، ثم نحى الذر عنه فوزنه ثانية بلا ذر فوجد أن الوزن لم يتغير. عائشة -رضي الله عنها- تصدقت بعنبه، وقالت: كم فيها من مثقال ذرة. والنبي ﷺ يقول: لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، وقال: كل معروف صدقة، فحتى كف الأذى أخبر أنه صدقة النيات الطيبية والمقاصد الحسنة ومحبة الخير للناس،

	والإحسان إليهم بما يستطيعه الإنسان ولو كان قليلاً، كالكلام الحسن {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [سورة البقرة:83]، كل هذا داخل في الخير، وسائر وجوه البر والإنفاق بأي نوع كان الإنفاق على المدارس والتعليم، الإنفاق على المرضى، الإنفاق في المساجد، الإنفاق في دور الأيتام، ودور العجزة ودور المعاقين، في أي باب من الأبواب.
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ	هذا فيه تحفيز للنفوس، فإذا استشعر الإنسان أن الله يعلم كل شيء كان هذا حافزًا للمزيد والمزيد من العمل لأن الله سيجازيه عليه. فإذا قال لك عظيم من الناس من أمير أو رئيس: أنا أعلم كل الأعمال التي تقوم بها، والجهود التي تبذلها، فهذا يحفز الإنسان حينما يسمع هذا الكلام، لمزيد من العطاء والبذل والعمل؛ ولله المثل الاعلى إذًا عليك أن تعمل وتنتظر الجزاء والثواب والأجر من الله؛ فالله سيُثيب العبد على هذا.
	الله سبحانه أبهم الجزاء، ولم يبين قدره فهذا دليل على المضاعفة وعلى أن الثواب أعلى وأجل من العمل.
	الإخلاص ومراقبة الله ألا تنتظر من الآخرين شيء ولا تلتفت إليهم فالله يعلم، أما الآخرين فلا شأن لك بهم، فلا تقل: هؤلاء ما سمعت منهم كلمة شكر أو تقدير في يوم من الأيام، إذا كنت تعمل لهم فانقطع، وإذا كنت تعمل لله فإن الله به عليم، وسيُجازيك عليه.
هذه الآية عظيمة في باب الإنفاق، فهذا تجارة مع الله -تبارك وتعالى، فالنفقة التي تكون بقدر معين تتفاوت بحسب	أولًا من جهة القلب: قال الله -تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [سورة المؤمنون:60]، عائشة -رضي الله عنها- سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}، فذكر أنهم الذين يتصدقون، ويصومون، ويخافون ألا يُقبل منهم. فمن أنفق وقلبه في حال الوجل والخشية والتعظيم والإخبات والتواضع لله -تبارك وتعالى- ويستشعر أن الله هو الذي أعطاه وأولاه ورزقه ويسأل ربه أن يتقبل ذلك منه، وأن لا يحول دون القبول مانع يقوم به، ويستشعر أنها مخلوفة وأن ما يُنفقه خير مما يُبقيه كما قال تعالى: {وَيَتَّخِذُ

متعلقها	مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [سورة التوبة:99]؛ فهذا ليس كالذي يُنفق ويستشعر أنها قد قُطعت من قلبه، وأن هذه النفقة من قبيل المغرم، الذي يؤخذ ولا يُرجي أجره ولا عائدته كما قال الله عن صنف من الأعراب منافقين: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا} [سورة التوبة:98]، فهي مقطوعة من قلبه، مأخوذة منه بالإكراه، كمن تقول لماذا أدفع زكاة مالي كل عام، يكفي عام واحد فقط. أو الذي يُنفق وهو مُعجب بنفقته، مُعجب بنفسه، وربما يُظهر ذلك أمام الناس، أو يتحدث به، أو يصطنع المناسبات؛ ليتفوه بشيء من ذلك، إما تصريحًا، وإما تعريضًا.
	ثانيا: من جهة تقديم الأولى في النفق عليهم: النفقة حينما تكون لذوي حاجة ومسغبة ليست كتلك النفقة التي تكون لمن دونهم بالحاجة؛ قال تعالى: {فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [سورة البلد:11-16]، فأحوال المسغبة تكون النفقة فيها أعظم. كذلك أيضًا النفقة للقرابات أعظم فهي نفقة وصلة، وهم أولى بذلك من غيرهم، ولذلك الترتيب في الآية يُعلمنا الله -تبارك وتعالى- وجوه الإنفاق من أجل أن نتجر معه، وأن نتحرى ما يعود علينا بالأجور الرابحة والتجارة العظيمة.

الجهاد في سبيل الله

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) }

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

وبعد أن حث الله المؤمنين على بذل المال، حثهم على بذل الأنفس وذلك بالجهاد في سبيل الله فقال: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} اي فرض القتال في سبيل الله بعدما هاجر النبي للمدينة وقوي المؤمنون، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم، وعدم احتمالهم لذلك، {وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} أي: مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } أي أن الجهاد مكروه للنفس ولكن فيه خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، ونشر الدين، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك،{وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} أي: محبة القعود عن الجهاد لطلب الراحة، والبعد عن القتل والجراح شر، لأنه يعقبه الخذلان، وتسلط الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب الأليم؛ لذا قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

هداية .... وتدبر

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ	الله -تبارك وتعالى- أمر بقتال الأعداء لما فيه من المصالح الغالبة الراجحة، فذلك مُترجح على ما فيه من المشقة والألم، فهذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله:" بمنزلة الدواء الكريه يشربه الإنسان ولابد؛ لتحصل بعده العافية، فمصلحة حصول العافية راجحة على مرارة الدواء وما فيه من الطعم الكريه، وذكر أيضًا التاجر يُسافر من بلده ويتغرب، ويتحمل المشاق، ويسهر فيتحمل هذه المكاره جميعًا من أجل مصلحة راجحة في نظره وهي تحصيل الأرباح". وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: {حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات}، فكل العبادات فيها المشقات سواء الصلاة، الصوم، الحج، النبي ﷺ قال عن النساء: {عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة}، فسماه جهادًا، فهذه الأمور المكروهة والمشقات التي تحتف بهذه العبادات مُغتفرة بجانب ما يحصل من المصالح، فالقتال في سبيل الله يعقبه النصر والظفر، ويحصل به من قوة الأمة ومناعتها فتكون مرهوبة الجانب يحسب لها الأعداء ألف حساب، فلا تكون الأمة ضعيفة خانعة للعدو فيطمع فيها كل أحد ويستطيل عليها خصومها وأعداءها؛ لأنهم يعتقدون أنه لا مُدافع عنها ولا قوة لها، فالأعداء لا يعرفون إلا الأمة القوية التي تدافع عن حقوقها ويحسبون لها ألف حساب، ولا يقيمون وزنًا للأمة الضعيفة.
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ	**كل الأقدار من لدن حكيم عليم، فقد تكون محنة فيها منحتك، وقد تكون منحة فيها محنتك** الإنسان لا يعلم العواقب في كل أمور حياته، قد تطمح نفس الإنسان لتحصيل مطالب ومحاب ويدعوا الله طالبًا تحققها، ويفعل الأسباب، ويبذل جهده فإذا لم يحصل له ذلك لربما يجزع ويحزن، ولكن الله صرفه عنه لأنه ليس فيه خير له، ولو كُشف له عن الغيب لعرف فضل الله -تبارك وتعالى- عليه،

شَرٌّ لَكُمْ	ورحمته به، والواجب عليه أن يحمد ربه -تبارك وتعالى- عليه، ويرضى بما قسم الله وقدر، لكن إذا وقع به ما يكرهه فهذا في حقيقة الأمر نعمة من جهة أن الله يُكفر عنه خطاياه، كما قال النبي ﷺ: {عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن}، المؤمن على خير في كل حال، إذا أصابه شدة فإنه يصبر؛ لأن الله اختار له ذلك؛ ليُمحصه ويُطهره ويُنقيه ويُكفر خطاياه، فهذا كله مبناه على حكمته -تبارك وتعالى- ورحمته فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فينبغي على العبد أن يرضى ويُسلم ولا يجزع ولا ينكسر ولا يسوء ظنه بالله -جل جلاله وتقدست أسماءه، وإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جهة المسرة، هو لم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. يوسف عليه السلام أخذوه فألقوه في البئر ثم بِيع بَيع المماليك بثمن بخس على قدرته وجلالته ومنزلته الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يُباع بثمن بخس دراهم معدودة، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الرق، ثم بعد ذلك يُتهم بتُهمة غير محبوبة لأحد، ثم بعد ذلك يُحبس سنوات ثم صار هو العزيز في مصر، وجاءه إخوته في لبوس الحاجة والمسكنة والضعف، ثم بعد ذلك ساق الله له أبويه مع إخوته وخروا له سُجدًا، فكانت العاقبة في النهاية محمودة مع ما في البدايات من الألم والنقص. إذا قيل للعبد تُدبر نفسك أو يُدبرك الله؟ لا شك أن كل أحد يقول: أُريد أن يُدبرني ربي لأنه أحسن من تدبيري وأعلم وأحكم، فيكل أمره إلى الله ويتوكل عليه، فالحياة لابد فيها من وقوع ألوان المكاره، لكن يكون من وراء ذلك بالنسبة لأهل الإيمان الخير العميم والمصالح الكبيرة، ويندفع عنه من الشرور ما لا يُقادر قدره إلا الله.

	العبد لا يؤاخذ بما يقع فيه نفسه من كراهية الأمور غير الملائمة له فهذا أمر جُبل عليه، فهو يكره الموت ويكره المرض ويكره الفقر ونحو ذلك لكن فرق بين مجرد الكراهية التي طُبع عليها الإنسان وبين التسخط والجزع والاعتراض على أحكام الله -تبارك وتعالى، وإنما غاية ما هنالك ما يوجد من نفور الطبع فهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان وقد عبر القرآن بهذا: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [سورة البقرة:216]، فسماه مكروهًا؛ لما فيه من المشقة على النفوس؛ لا أن هؤلاء قد كرهوا حكم الله وأمره.
	هذه الآية تسلية من الله لعباده، يقول: أنتم لا تعرفون العواقب فقد تحبون أشياء هي شر لكم، والله يصرفكم عنها، وقد تكرهون أشياء وهي خير لكم في المآل لكن لا تشعرون بذلك، اذا استشعر الإنسان ذلك انفسح الصدر واتسع وطابت النفس ويكون لسان حال العبد أن تدبير الله -تبارك وتعالى- خير من تدبيره.
	ضعف الإنسان فهو لا يعلم العواقب مسكين، فيحزن لأمور قد تكون المصلحة في فواتها. وكذلك قد يحزن لمكاره وقعت فيه وتكون المصلحة في وقوعها، وكم قادت العِلل والآلام للعافية

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) }

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد، لشمل الأشهر الحرم وغيرها، استثنى تعالى، القتال في الأشهر الحرم فقال {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ} يسألك أصحابك سؤال تعليم عن الشهر الحرام هل يحل فيه القتال؟ وبعضهم يقول إن السائل هم المشركون يسألون على سبيل التهكم والسخرية؛ وذلك أن هذه الآية نزلت على سبب، وذلك ما جاء في حديث جُندب بن عبد الله بأن النبي ﷺ أرسل سرية وأمَّر عليهم عبد الله بن جحش وكتب له كتابًا وأمره أن ينظر في هذا الكتاب حتى يبلغ موضعًا معينًا، فلما سار وبلغ ذلك فتح الكتاب وقرأه على أصحابه، كان النبي ﷺ أمره أن يُخبرهم بأن المسير إلى نخلة بين مكة والطائف؛ ليأتوه بخبر قريش، فخيرهم بين المُضي أو الرجوع إلى المدينة فلما بلغوا ذلك الموضع في طريقهم إلى نخلة مرت بهم عير لقريش، وفيها جماعة منهم ابن الحضرمي، وكان أصحاب النبي ﷺ لم يستبينوا الشهر _شهر رجب_ فلما قتلوه وأخذوا العير، وفر أولئك الرجال الذين كانوا يصحبونها، وأسروا منهم رجلين وجاءوا بذلك جميعًا إلى المدينة، فأتوا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية.

فلما سألوه جاء هذا الجواب {قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} القتال في الشهر الحرام كبير عظيم عند الله -تبارك وتعالى، ثم تحول الخطاب إلى المشركين فلم يمنحهم فرصة لاستغلال الحدث من أجل الطعن في الإسلام وأهله، قال: {وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} أي: القتال في الشهر الحرام كبير عظيم، ولكن ما تفعلونه أنتم معاشر المشركين أعظم وأشد وأشنع من الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الدخول في الإسلام وصد الناس عن الحق وامتحانهم

من أجل أن يرجعوا عن دينهم بالأذى الشديد، والنكال هذا أشد من القتل، الذي وقع عليكم، لأنه إن قُتل وهو على حق وإيمان فإنه يصير إلى الجنة، لكنه إن صُرف عن دينه فإنه يشقى في الدنيا والآخرة ثم قال: {وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ}، الفتنة هنا فُسرت بمعنى الكفر، أي الكفر بالله أعظم من القتل. ثم قال: {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} يعني: هم مستمرون على قتالكم لا ينتهون عن هذا أبدا حتى يردوكم عن الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا تحقيق ذلك. {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أي: ومن استجاب لهم وأطاعهم وخضع لهم فترك دينه وارتد عنه فمات على الكفر فقد ذهب عمله وحبط، وبطل، وصار من المُلازمين للنار لا يخرجون منها.

هداية .... وتدبر

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ	معرفة التشريع يُرجع فيها إلى كلام الله وكلام رسول الله ﷺ بفهم السلف الصالح، ولا يُرجع فيها إلى الأذواق، أو العقول.
	الله يخلق ما يشاء ويختار، انطلاقًا من قوله: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [سورة القصص:68]، فاختار الله الأشهر الحُرم على غيرها من الأزمنة، وجعل لها مزية، وذلك أن الأعمال تعظم فيها من الطاعات، وكذلك أيضًا السيئات ولذلك قال الله {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [سورة التوبة:36]. لذا فالواجب طاعة الله فيها، والبعد عن الذنوب والمعاصي، والإيمان باختيار الله لعباده بأنه الأصلح لهم، وعدم الحسد والنظر لما عند الغير والإعتراض على قدر الله.
قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ	الذنوب والجرائم والمعاصي تتفاوت، فهي ليست على مرتبة واحدة. فهناك كبائر، وهناك صغائر، وهناك معاصٍ تتعدى للغير،

وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ	وهناك ذنوب قاصرة، وكلٌ له عقابه وحسابه.
	في هذه الآية يعلمنا الله طريقة المحاجة والرد على المبطلين من كان غرضه الطعن في الحق وأهل الحق والثلب في الإسلام وأهله، فالواجب قطع الطريق عليهم؛ كما يُذيعه أعداء الله -تبارك وتعالى- قديمًا وحديثًا، ويستغلون ما يقع من انحرافات، أو جرائم، أو عدوان من بعض المسلمين فيشنعون على الإسلام، وأهل الإسلام ويستغلون ذلك أبشع استغلال، والآن مع وسائل الإعلام في هذا العصر ازدادت الفتنة، فالواجب هو قطع الطريق عليهم، لأن الإسلام لا يُقر هذا الباطل ويعاقب عليه، ولكن لا نسترسل معهم وإنما يُرد على هؤلاء بما يليق بهم.
	في قوله -تبارك وتعالى: { وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ} ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم، وترتيب نظم الكلام أن يُقال: وصد عن سبيل الله وكفر به وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، لكنه جاء بهذا الترتيب للاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم، فإن الكفر بالله أفظع من الصد عن المسجد الحرام.
	من كان أقوم بطاعة الله -تبارك وتعالى- فهو أحق بالمسجد الحرام لقوله تعالى: {وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ}، فالمشركون مُقيمون في مكة، وقد أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه لكنهم ليسوا بأهل المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، كما قال الله -تبارك وتعالى: {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ} [سورة الأنفال:34]. وهذا في كل أمر، فمن كان أكثر طاعة وتقوى يقدم في كل أمور البر، كمسئولية توزيع الزكاة، أو بناء المساجد، أو الدعوة إلى الله، أو نشر العلم، كما في دعوة إبراهيم عليه السلام: "قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين"
وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ	عُبر بالمضارع وهذا يدل على الاستمرار، ثم غياه بهذه الغاية: {حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ}، أي أن قتال الكفار للمسلمين أمر مُستمر لن يتوقف إلى غاية أن يرتد المسلم عن دينه، وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون

اسْتَطَاعُوا	غيرهم، حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصا، أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس، لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم، كل ما يمكنهم من الشبه، التي تشككهم في دينهم {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}. وأما ما يتعلق بالرضا فلن يتحقق إلا باتباع ملتهم ودينهم قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [سورة البقرة:120] فهنا من اتبع سبيل النصارى لن ترضى عنه اليهود، والعكس، ورضا الناس غاية لاتدرك فإن أرضيت أحدهم سخط عليك غيره، لذا لابد أن يسعى الإنسان لرضا رب العالمين، فلو رضي عن العبد أرضى عنه العباد.
	جاء بالشرط {إِنِ} الذي يدل على البُعد، فذلك لن يتحقق ولن يحصل أن المسلمين يرتدون عند دينهم، كما يقول القائل لعدوه: إن استطعت أو إن ظفرت بي، فاصنع ما بدا لك، فهو يثق أنه لا يحصل هذا الظفر. وهذا دليل على أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، فلن يرتد أحد عنه سخطة له كما في حديث هرقل، وسؤاله لأبي سفيان، حيث قال: { وسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وكَذلكَ الإيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ}.
وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ	فعبر بصيغة المُطاوعة إشارة إلى أن رجوعهم عن الإسلام إن قُدر حصوله لا يكون إلا عن محاولة من المشركين، فإن من ذاق حلاوة الإيمان لا يسهل عليه رجوعه عنه، ومن عرف الحق لا يرجع عنه.
	لم يأت هنا مفعول ثاني حيث لم يقل: من يرتدد منكم عن دينه إلى دين كذا، إلى دين اليهود أو إلى دين النصارى؛ لأن ليس الشأن في الدين الذي يتحول إليه إذا ارتد، وإنما الشأن هو في الرجوع عن الإسلام والتحول إلى الباطل، وأن هذا لو حصل فذلك الوعيد حاصل لمن وقع على أي ملة كان مآله ومصيره، سواء كان من الأديان التي تُنسب

	إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وقد دخلها التحريف، أو إلى وثنيات لم تأت في شيء من دين الرُسل -عليهم الصلاة والسلام.
	وضع الظاهر موضع المُضمر فما قال بعده: { ومن يرتدد منكم عنه فيمت وهو كافر}، وإنما قال: عن دينه، فجاء بالمُظهر في موضع المُضمر؛ ليُشعر بفداحة هذا الأمر وشدة هذا المقام وفظاعة هذا الجُرم، هل يرتد عن دينه الحق؟ هذا أمر عظيم كيف يكون؟.
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ	جاء بهذا القيد وهو الكفر؛ لأن ما بعده مما رُتب عليه من حبوط الأعمال مُعلق بذلك، فدلت على أن حبوط الأعمال إنما يكون بالموت على الكفر وبناء عليه يُقال بأن من ارتد عن الإسلام، ثم رجع إلى الإسلام ثانية فأعماله التي عملها قبل ردته لا تحبط بل يرجع إليه عمله فيكون إسلامه على ما أسلف كما قال النبي: "أسلمت على ما أسلفت من خير" يعني: يُحسب له أعماله الطيبة في الكفر، فمن باب أولى أنه إذا ارتد ثم رجع إلى الإسلام أن أعماله الصالحة التي كانت في حال كونه على الإسلام أنها لا تحبط؛ ولذلك لا يُطالب مثلاً: بقضاء الصلوات حينما كان مُرتدًا أو بإعادة الحج السابق أو بنحو ذلك من الأعمال.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ { (218)

"التفسير الإجمالي وترابط الآيات"

علاقة هذه الآية بما قبلها

بعد أن توعد الكافرين والمرتدين، وعد المؤمنين بالثواب على أعمالهم، وكما قال الإمام الرازي: "ولايكاد يُذكر وعيد، إلا وبعده وعد"

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} أي أقروا وأذعنوا وصدقوا وانقادوا بقلوبهم وجوارحهم وألسنتهم
{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} أي: بمفارقة ديارهم لله، وفي الله، لرضا الله تعالى، ونصرة لدينه.
{وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي لإعلاء كلمته ونصر دينه.
هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران فمن قام بها على مشقتها كان لغيرها أشد قياما، لذا كان أهلها هم الراجون لرحمة الله قال تعالى: {أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ} أي: أولئك يطمعون في رحمة الله -تبارك وتعالى- وفضله وثوابه، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة.
{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}: غفور لذنوب العباد يسترها، وهو الذي يقي العباد من تبعاتها وجرائرها إذ الحسنات يذهبن السيئات، وهو رحيم يُنزل ألطافه ويُدخلهم جنته ويرزقهم رزقًا حسنًا.

هداية .... وتدبر

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ	هنا لم يقل: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، فلم يأت بالعطف مُجردًا وإنما أعاد الموصول مع الأوصاف المذكورة بعد الإيمان، فهذا يدل على تعظيم هذه الأعمال، فهذه الأعمال لِعظمها ومنزلتها كأنها تستقل في تحقيق الرجاء، أو يُقال بأن ذلك باعتبار أن الإيمان هو الأصل وهذه فروع عنه فأعاد الموصول ثانية -والله تعالى أعلم.
	الإيمان هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار، وهو الذي إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل، وهو أعلى من مجرد الإسلام، فالإيمان يتضمن الإنقياد لأوامر الله والحرص على التقوى.
	الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله، وأهله، وخلانه، تقربا إلى الله ونصرة لدينه، لا حمية ولاشجاعة. ومن الهجرة ترك العيش في بلاد الكفر إن لم يكن هناك عذر أو فائدة تعود على المسلم، لأنه يضطهد ويفتن في دينه يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء:97-98].
	الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه، أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.
أُوْلَئِكَ	{أُوْلَئِكَ} أشار إليهم بالبعيد لعلو مرتبتهم ورفعة منزلتهم،

يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ	لأن الأعمال التي عملوها هي أعلى الأعمال وأقواها، فلما صبروا على مشقتها ولؤاءها كانوا أحق برحمة الله من غيرهم.
	قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله: {من رجا شيئًا استلزم رجاءه ثلاثة أمور: الأول: محبة ما يرجوه. الثاني: الخوف من فواته. الثالث: السعي في تحصيله بقدر الإمكان} فالذي يرجو الجنة والثواب يخاف الا يحصلها لذا يسعى ويجتهد ويفعل الطاعات لينال هذا الثواب. أما الرجاء الذي لا يُقارنه شيء من الاعمال فهو من باب الأماني، رجاء ليس معه حرص ولا بذل جهد، ولا محبة تحقيق هذا المطلوب المرجو، ولا الخوف من فواته، ومن غير سعي في طلبه وتحصيله، فهذا يعتبر مجرد أماني، كل راج فهو خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات، لذا جعل الله رجاءهم بالإتيان بهذه الأعمال الجليلة، الإيمان والهجرة والجهاد، وبهذا نعلم أن الرجاء وحسن الظن بالله -تبارك وتعالى- إنما يكون مع الإتيان بالأسباب المطلوبة أسباب النجاة فيأتي العبد بها، ويسعى جاهدًا في تحقيقها، ثم بعد ذلك هو يُحسن الظن بربه -تبارك وتعالى- ويرجوه أن لا يكله إلى شيء منها وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويصرف عنه ما يُعارضها ويُبطل أثرها.
	العبد لا يجزم بقبول عمله، أو أن يحكم بنجاته، وإنما يعمل ويجد ويجتهد ثم يكون بعد ذلك راجيًا ويُحسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أنه لا يُضيع عمله وسعيه وطاعته وإيمانه، ولايعجب بعمله، أو يغتر به، أو لا يستشعر أنه مُتفضل على ربه بالاستقامة والطاعة، وإنما يستشعر فقره وحاجته، وأن الله -تبارك وتعالى- هو الذي هداه ووفقه وأعانه على ذلك كله، فيرجو أن يقبل الله -تبارك وتعالى- ذلك منه، العبد مهما عمل من الأعمال الصالحة وبذل في مرضاة الله -تبارك وتعالى- فإنه لا ينبغي أن يعتمد عليها، فالنبي ﷺ أخبرنا: {إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله!

	قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته}، فالعمل الصالح سبب، ولكن لا يستقل هذا السبب بدخول الجنة، فيكون العبد مع الجد والاجتهاد والعمل الصالح راجيًا للقبول ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.
	الأعمال بالخواتيم هذا الثناء عليهم والوصف الذي وصفهم به {أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ} مع أنه أثنى عليهم ومدحهم بالإيمان والهجرة والجهاد، فيبقى بعد ذلك الرجاء وذلك أن الإنسان لا يدري بما يُختم له، وإنما الأعمال بالخواتيم. ماذا يقول المُضيع المُفرط الذي يجد ويجتهد في معاصي الله -تبارك وتعالى- ومساخطه ماذا يرجو مثل هؤلاء، إذا كان هؤلاء أصحاب الأعمال العظيمة يرجون رحمة الله، وليس الواحد منهم بجازم بمصيره ونهايته وقبول عمله مع هذه الأعمال، كما قال الله {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [سورة المؤمنون:60]، ويخاف أن لا يُقبل منه، فأين هذا من ذاك الذي قد أيقن أنه قد قُبل عمله وأنه قد تحققت فيه الهداية فهو يتساءل من الحاجة لصيام عاشوراء وقد صام عرفة وهو يُكفر سنة ماضية وسنة آتية، هذا خلاف هذه الآية تمامًا، هذا قد جزم وأيقن أنه قُبل، وأنه قد تحقق الأثر أيضًا من غفران الذنوب الماضية والمتقدمة في سنة آتية، هذا السؤال في غير موضعه إنما يصدر عن نفس مغترة بالعمل قد ضمن النجاة في زعمه، وذلك قد يكون سببًا لحصول ووقوع ما لا يحتسب عند الله -تبارك وتعالى، فالعبد دائمًا يبقى بين الخوف والرجاء، بل قال كثير من أهل العلم: أنه في حال الصحة والقوة والعافية والنشاط يُغلب جانب الخوف ليكون الخوف رادعًا له عن مُقارفة ما لا يليق، فإذا كان في حال الاحتضار فإن يُغلب جانب الرجاء من أجل أن يموت وهو مُحسن الظن بربه -جل جلاله وتقدست أسمائه.
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ	ذكر هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى أن هؤلاء أهل المغفرة والرحمة، وأنهم قريبون منها، وأن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات وحصلت له رحمة الله، وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب،

	التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم، لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها، لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولا وآخرا، وهو الذي منّ بالسبب والمسبب.